

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثانية - العدد السابع - خريف ١٣٩١ش / أيلول ٢٠١٢م

ظاهرة العيارة في الأدب الفارسيّ والتقاؤها مع ظاهرة الصعلكة في الأدب الجاهليّ

فرهاد ديوسالار*

افسانه مرادى**

الملخص

ظهرت في العصر الإسلاميّ الوسيط ظاهرةٌ سُمّيت بظاهرة العيارة أو الشطارة والتي تلتقى مع ظاهرة التصلّك والصعلكة الجاهليّة في نزعتها الإنسانيّة؛ بحيث أعطى معظمُ الدارسين والباحثين تفسيراً إنسانياً لهاتين الظاهرتين من حيث الالتقاء والتداخل بينهما من جهة، والتواصل من جهةٍ أخرى إذ إنّ هاتين الظاهرتين تحملان في طيّاتهما فكرةً إنسانيّةً رددتها العامة في كلا العصرين الجاهليّ والإسلاميّ الوسيط، في الحكايات والقصص.

وجديرٌ بالإشارة أنّ هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحاً أو حلماً جماعياً لتحقيق العدالة بصورتها الاجتماعيّة والسياسية معا في المجتمع، تتلاشى معه تلك الهوة العظيمة التي تفصل بين أقلية تملك معظم الثروة، وأغلبيةٍ ساحقةٍ تعيش على الفقر والحُرمان. وفي الحقيقة إنّ المتأمل في أدب هؤلاء يرى أنهم كانوا في ثورتهم وخروجهم وتمردهم، يهدفون إلى الإصلاح ويُنشدون المساواة والعدالة الاجتماعيّة.

الكلمات الدليلية: العيارة، الصعلكة، العدالة الاجتماعيّة، العصر الإسلاميّ

الوسيط، التمرد.

Divsalarf@yahoo.com

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلاميّة في كرج، إيران.

** خريجة جامعة آزاد الإسلاميّة في كرج، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري

تاريخ القبول: ١٣٩١/٤/١٨هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٠/١٠هـ. ش

المقدمة

بادئ ذي بدء وقبل أن نجيب عن بعض التساؤلات في هذا المنطلق ومنها: من هم العيارون؟ وما هي صفاتهم وأفعالهم؟ وهل كانوا مخطئين في فعلتهم هذه؟ ولماذا اختاروا الشطارة والعبارة حرفة؟ وهل هي ذات صلة مع الصعلكة؟ وأخيرا لماذا ظهرت هذه الظاهرة؟ علينا أن نشير إشارة خاطفة إلى أن ظاهرة الشطارة والصعلكة التي تُنتج الخروجَ والتمرد والعصيان، ظاهرة عالمية لها بصماتها في المجتمعات المختلفة الشرقية والغربية، القديمة والحديثة. غير أنها كانت تتفاوت بين مرحلة وأخرى، فحينما تحبب وتتلأشى، وأحيانا تظهر وتشتد. ولكنّها بصورة عامة يمكن القول إنها تقوى وتشتد في المجتمعات التي تتعرض للفوضى والتجزئة من جرّاء ضعف السلطة المركزية ومن كثرة الفتن، والاضطرابات، والمجاعات، والمشاكل والهزات المختلفة التي شقيت بها، أو التفاوت الاجتماعي الطبقي المكشوف الناجم عن بروز ظاهرة التفاوت الطبقي - الاقتصادي، وما ولدته من ردود فعل من غلاء الحياة الذي كانت الحكومة مسؤولة له بسبب تغيرات شاملة في شتى الميادين، الثقافية، والاجتماعية والاقتصادية و... إلخ.

ولكنها تظهر في بعض المجتمعات كالمجتمع الجاهلي وليدة الصراع الداخلي، وبسبب الفقر والجوع وما نتج عنه من إرغام الطبقة الفقيرة التي لم تجد سوى الغزو والسلب والتلصص وسيلةً لتنجو بنفسها من ذلّ الفاقة والحِرمان مما دفعها إلى التمرد. والباعث الرئيسي لإيجاد هؤلاء الخارجين علي القانون، هو أن كل مجتمع يضم فئة قليلة من الأسياد الأثرياء والمترفين وفئة كبيرة من الفقراء. يقول جرجي زيدان إن الصعاليك والشطار لا يرون في السرقة والنهب أيّ ذنب، فيستحلونها ويحسبونها نوعا من الدهاء واللباقة؛ لأنّ التجار والأغنياء لا يعطون زكاة أموالهم. (زيدان، ١٣٨٦ش: ٩١٠) وكلّ فئة من هذه الفئات لها قيمٌ وعاداتٌ خاصةٌ بها، واشتهرت بشجاعتها وفروسيّتها وبإسراعها إلى مساعدة المحتاجين ومناصرة المظلومين عندما يكونون في حال خصام مع الأسياد الذين يستخدمون السلطة بطريقة غير عادلة ولا شرعية. وهذا أمرٌ ينبع بنوع ما عن الفكر الاشتراكي وعن ضرورة نشوء الجماعات ولا الطبقات، والحصول على السعادة.

يعتقد أرسطو بنظريةٍ تؤكد على ضرورة نشوء الجماعات حيث يتكوّن الناس من ذكرٍ وأنثىٍ محتاجون إلى الاجتماع فهو يرى في كتابه "السياسة" بأنّ الاجتماع أمرٌ طبيعيٌّ والإنسانُ كائنٌ اجتماعيٌّ أي أنّ الناسَ من غير أية حاجةٍ إلى التعاون يرغبون رغبةً قويةً في عيشة الجماعة وهذا لا يمنع أنّ كلّ واحد منهم مدفوعٌ بمصلحته الخاصة وبالرغبة في تحصيل حظّه الفرديّ من السعادة التي ينبغي أن يلقاها. (إحسان، ١٩٩٩م: ٦٧)

كما يرى أنّ الناسَ يجتمعون أيضاً على الأقل من أجل سعادة العيش وحدها وأنّ حبّ الحياة هو بلاشك أحدُ كمالات الإنسانية؛ لذا فإنه يرى بأنّ المرء يرتبط بالمجتمع السياسيّ حتى عندما لا يجد فيه شيئاً أكثر من المعيشة وذلك يؤكد الرؤية السياسية لأرسطو، التي محورها الاجتماعُ الإنسانيُّ. (عبدالرحيم، ١٩٦٩م: ١٠٢)

وفي هذا القسم لا بدّ من الإشارة إلى نظرية ابن خلدون حيث يرى أنّ الاجتماع هو العمرانُ البشريُّ الذي يحدث نتيجةً لاحتياج الناس بعضهم لبعض، وذلك لغرض إشباع حاجاتهم الأساسية، التي لا يستطيع الإنسان بمفرده أن يقوم بها. (محمد الحسن، ١٩٩٩م: ١٤٨)

كما يعتقد ماركس أنّ الصراعَ الطبقيّ بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة هو أساسُ تغيير المجتمع من مرحلة حضارية معيّنة إلى مرحلة أخرى كتغيير المجتمع من نظام العبودية إلى نظام الإقطاع ثم منه إلى نظام الرأسمالية، كما درس ماركس الثورة الاجتماعية وركّز على أسبابها ونتائجها ودورها في تحرير الإنسان من الظلم والقيود الاجتماعية والحضارية. (محمد الحسن، ١٩٩٩م: ١٤٨)

أما اهتمامُ ماركس بالطبقة العاملة (البرولتاريا) فقد جعله يحدّد الظروف التي تؤدّي إلى قيام ثورة هذه الطبقة على النظام الرأسماليّ والإطاحة به ويبرّر ذلك بأنّ الاستغلال والعبودية والفقر وغيرها من الأمور التي تتعرض لها طبقة العمّال، هي نتيجة لتراكم رأس المال لدى الرأسماليين واحتكارهم لوسائل الإنتاج. إنّ أصحاب النظرية الشيوعية فقد استخدموها لتبرير أنّ السلطة السياسية الرأسمالية والاقتصادية كانت تستغلّ قوة العمل للطبقات الفقيرة والمحرومة وذلك نتيجة لسوء استعمال القوة. (مولود

زايد الطيب، ٢٠٠٧م: ٥٤)

الصعلكة والعبارة لغة واصطلاحاً

جاء في لسان العرب تحت مادة (ص ع ل ك): الصُعْلُوك: الفقيرُ الذي لا مالَ له، زاد الأزهريُّ: ولا اعتماداً. (ابن منظور، ١٩٦٨م: مادة صعلك) ورجل عَيَّار: كثير المجيء والذهاب في الأرض، وربما سُمِّي الأَسَدُ بذلك لترده ومجيئه وذهابه في طلب الصيد: قال أوس بن حجر:

لَيْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَرْدِيِّ هَبْرِيَّةٍ كَالْمَزْبَرَانِيَّ، عَيَّارٌ بِأَوْصَالِ

أَي يَذْهَبُ بِهَا وَيَجِيءُ؛ قَالَ: وَحَكِي الْفَرَّاءِ رَجُلٌ عَيَّارٌ إِذَا كَانَ كَثِيرَ التَّنَطُّوفِ وَالْحَرَكَةِ ذَكِيًّا؛ وَفَرَسٌ عَيَّارٌ وَعَيْالٌ؛ الْفَرَسُ النَّشِيطُ. قَالَ: وَالْعَرَبُ تَمْدَحُ بِالْعَيَّارِ وَتُذَمُّ بِهِ، يُقَالُ: غَلَامٌ عَيَّارٌ نَشِيطٌ فِي الْمَعَاصِي، وَغَلَامٌ عَيَّارٌ نَشِيطٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى. (ابن منظور، ١٩٦٨م: مادة صعلك)

ذُكِرَتْ فِي بَعْضِ الْمَوَادِدِ، مِثْلَ تَارِيخِ سَيْسْتَانَ، لَفِظَةُ سَالُوكَانَ مَعَ عَيَّارَانَ وَيَعَادَلُ الصَّعَالِيكَ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَكَانَ فِي الْإِتِّصَالِ بِهِ. (حاكمي، ١٣٤٦ش: ٦٢٧)

على كل حال، بعد تبين نظريات هؤلاء يمكن القول إن مشاعر هؤلاء العيارين والصعاليك والشطار اتحدت بوطأة الظلم والفقر والهوة العميقة الموجودة بين الطبقة الحاكمة والمحكومة، وفرض الضرائب والاضطهاد الواقع على كاهلهم فبادروا إلى الأخذ من الغنى، والبخيل، ونصرة الفقير البائس، فحملت نفوسهم أخلاق نبيلة وقيم سلوكية رفيعة، ولو أرغموا بأن يقطنوا في الصحارى والبرارى والغابات كما فعل الصعاليك الذين قاموا بفعاليتهم هذه مثل "طرزان" الذي كان يعيش مع حيوانات الغابة. وهذه هي الميزة المشتركة العامة بين هؤلاء في المجتمعات المختلفة. ونرى هذه الميزة عند "روبن هود" الشخصية الإنجليزية التي برزت في الفلكلور الإنجليزي وهي تمثل فارساً شجاعاً، مهذباً خارجاً عن القانون. إنه كان بطلاً من الشعب هدفه محاربة الفساد؛ كما كان متهوراً يقود مجموعته من المتمردين في غابات شروود. وكان يتمتع ببراعة مذهلة في رشق السهام. تمثل أسطورة روبن هود في العصر الحديث شخصاً قام علي سلب وسرقة

الأغنياء لأجل إطعام الفقراء، بالإضافة لذلك حاربَ روبن هود الظلمَ والظغيانَ. أو نرى هذه الميزات عند السامورائيين في اليابان والشوالية في أوروبا. فبناءً على وجود الاشتراكات الكثيرة بين المجتمعات العالمية، تُعدُّ هذه الظاهرةُ جديرةً للدراسة. (هانري كرين، ١٣٨٥ش: ١٤٢)

كما نرى هذه الظاهرة في إيران قبل الإسلام، حيث ذكر في "زندونديداد": كانت هناك جماعةٌ معارضةٌ للحكومة، تستحسن سرقة الأموال من الأغنياء وإعطائها إلى الفقراء وتعتبرها "كرفه" أي العمل الحسن والمقبول. (منصور شكى، ١٣٧٢ش: ٢٩)

أما العيارون في العصر الإسلامي الوسيط فكانوا كسابقيهم في العصر الجاهليّ - وهم الذين سُمُّوا بالصعاليك - أولئك الذين تمحورت سيرتهم حول قضية العدالة الاجتماعية والسياسية فضلاً عن التحرر الاجتماعي. وجديرٌ بالعناية أنّ هاتين الظاهرتين - العبارة والصعلكة - تحلمان في طبيّتهما فكرةً إنسانيةً ردّتها العامة في كلا العصرين الجاهليّ والإسلاميّ، في الحكايات والقصص. ولاشك أنّ هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحاً أو حلماً جماعياً لتحقيق العدالة بشكليها الاجتماعيّ والسياسيّ، وظلاً حَيِّين في الوجدان الشعبيّ في هذه العصور. أولئك هم الذين أصحابُ أنفةٍ واعتدادٍ بالنفس فيتحملون الأذى الجسديّ، والجوعَ بدلاً عن أن يستجدي أحدهم غيره والمدهشُ أنهم لا يستأثرون بما يأخذون بل كانوا يُؤثرون من كان بهم خصاصةً من أصحاب الحاجات المعوزين على أنفسهم وهم يُعبّرون عن المرارة التي تتفاعل في أنفسهم بسبب التفاوت الاجتماعيّ وضيق ذات اليد ولذلك فإن طائفةً منهم قد برّرت وسوّغت لنفسها اللجوءَ إلى السرقة، واعتبرت ذلك موضعَ فخرٍ واعتزازٍ ومؤشراً على البطولة والشجاعة والحماسة، وبعد ذلك أعلنوا تمردهم وثورتهم على بعض طبقات المجتمع، وعلى الذين استأثروا لأنفسهم بالسلطة أو المال أو بهما معاً، كما استهدف هؤلاء أن ينالوا بأسلوب غير شرعيّ ما يتصورون ويعتقدون أنه حقٌّ شرعيّ لهم.

وهذه الظاهرة، أي ظاهرة التمرد واجهت كلّ عنف وقسوة من السلطة القائمة، باعتبارها خروجاً على القانون والسلطة الشرعية. ومن الطبيعيّ أن تشوّه صورتهم من قبل مؤرخي السلطة الرسميين، إما جهلاً بأوضاع هذه الطبقة الاجتماعية المتردية

أو مبالاةً للسلطة القائمة. غير أن العيارين والشطار بالمقابل حَظوا بإعجاب العامة في عصرهم، فتعاطفت معهم وأشادت بأفعالهم. وقد انتهى الارتقاء بالشطار والعيارين في التراث الشعبي إلى مرتبة البطولة شبه ملحمية، حتى رددت الألسنة أن اللصَّ أحسنُّ حالاً من الحاكم المرتشى أو القاضى الذى يأكل أموال اليتامى. (العقيلي، ١٩٩٤م: ٩٦)

كانت الصعلكة والعيارة عندهم نزعاً إنسانيةً نبيلةً وضريبةً يدفعها القوى للضعيف، والغنى للفقير وفكرة اشتراكية تشترك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيباً؛ بل حقاً يغتصبونه إن لم يؤد لهم، وتهدف إلى تحقيق لونٍ من ألوان العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادى بين طبقتى المجتمع المتباعدين: طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء. فالغزو والإغارة للسلب والنهب لم يعد عندهم وسيلة وغاية وإنما أصبح وسيلةً غايتها تحقيقُ نزعتهم الإنسانية وفكرتهم الاشتراكية كما هو الحال عند الصعاليك الجاهليين.

(هداره، ١٣٨٥ش: ٣٩)

من هنا بدأ الصراع بين أفراد القبيلة الفقراء الذين كانوا يعانون من الفقر، والحرمات، والجوع، والظلم والتبعية للقبيلة دون أن تكون لهم كلمة تُسمع أو شأن، وذنبهم الوحيد أنهم وُجدوا في هذه الحياة فقراء. وقد وُجدت فئة من المضطهدين الذين يحملون عقولاً نيرةً تؤمن بالعدالة وتُبكر الظلم والاضطهاد... إن هؤلاء جرّدوا سيوفهم دفاعاً عن حقهم وحقوق إخوانهم، فتعرضوا للنفسى وتجريدتهم من حقوق القبيلة وبالتالي هدر دمايتهم أنهم نموذجٌ شريفٌ للثورة على الظلم والعمل على تغيير الواقع الاجتماعى.

وقد وجد الصعاليك في الأغنياء البخلاء، هدفاً صالحاً لهم فهؤلاء أصحاب مالٍ، وهم أصحاب جوع ولا بدّ للجوع من أن يعيشوا، فلم يجدوا في مباغته الأغنياء أى حرجٍ يمنعهم من السطو على أموالهم؛ لأنها زائدة عليهم، وهم في حاجة إليها وبذلك يضمنون لأنفسهم وإخوانهم الجوع الصعاليك أسباب الحياة فالحاجة عندهم تبرر الوساطة. والفقراء الذين لا يملكون شيئاً فتحول كثير منهم إلى قطاعٍ للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف. ولهذا السبب يُسمّون بدؤبان العرب. (قراغوزلو، ١٣٧٣ش: ٣٤)

فإن المتأمل في أدب الصعاليك يرى أنهم كانوا في ثورتهم على مجتمعهم، يهدفون إلى

الإصلاح ويُشَدون المساواة والعدالة الاجتماعية. وهذه الأهداف التي عبّروا عنها في شعرهم تُعتبر من أهم عناصر اشتراكيّتهم أو مظاهر الاشتراكية في أدبهم. فالصعاليك لم يهاجموا القوافل أو يغيروا على القبائل لرغبتهم في الإغارة ذاتها، ولا يُفيدوا غنى وثروةً وجاهاً يرفع من مقامهم في المجتمع الأرسطراطي الذي يعيشون فيه؛ بل نراهم على النقيض من ذلك تماماً، يأخذون من الأغنياء ليعطوا الفقراء على الرغم من كثرة مغائهم وأسلايهم من إغاراتهم، وذلك بسبب إباحتهم ما في أيديهم لأمثالهم من الفقراء. وهنا يبرز معنى أصيلٌ في مظاهر اشتراكيّتهم.

وقد كان اللون الأسود عنصراً موجوداً في بعضهم. ونادراً ما يكون الصعلوك حُرّاً، فهم عادةً من العبيد أو من الموالى وقد كان اللون الأسود عنصراً موجوداً في بعضهم تصعلكوا لآزدرآء قومهم لهم ولانتقاص أهلهم لشأنهم أو لفقيرهم، وظلم المجتمع لهم، وعدّهم طبقةً مهلوكةً، هم والحيوان المملوك سواء بسواء. وهذا ما جعل بعض الرقيق يهرب من سيده فراراً من ظلمه لينضمّ إلى الصعاليك، أو ليكون عصابةً تلجأ إلى الجبال والكهوف، تهاجم المارة والأحياء، لتحصل على ما تعيش به. (جواد على، ٢٠٠١ م: ١٧٩)

هؤلاء السودُ الزنجيون جماعةٌ من المحرومين والمتمتعين بالحظ السيئ قد وقعوا تحت الظلم بواسطة جماعة البيض إلى حد ما لم يكن عندهم مقدرةٌ للتخلص عن عواقب سوء ناجم من لونهم. جماعةُ السود من أية فرقة تشترك في الرقية والعبودية، كأنها خُلقت للرقية والعبودية. كما انعكست هذه الناحية في شعرنا الكلاسيكيّ بصورة سلبية بحيث ذكرت خصائصهم وميزاتهم من ناحية السواد والرقية ولايستأهلون أى شيء مع الأسف. يرى الحافظ الشيرازي أنّ الزنجي ليس جديراً بحفظ الأمانة التي هي من أسرار قلبه: (حافظ، ١٣٨١ ش: غزل ٧٦)

خزينه دل حافظ به زلف و خال مده كه كارهاي چنين، حد هر سياهي نيست
من وجهة نظر معظم هؤلاء الشعراء إنّ السواد لونٌ كريهٌ لن يمحوَ ووصمةٌ عار على
جبين هؤلاء، بحيث لا يمكن تغييره وهذا يدل على عدم مقدرة البشر لتغيير القدر الإلهي.
يقول سعدى في بوستان: (سعدى، ١٣٧١ ش: ٥٦٨)

به كوشش نرويد گل از شاخ بيد نه زنگي به گرمابه گردد سپيد

كما لا يمكن إنبات الزهرة من الصفصاف، فإنّ الزنجي لا يبيض ولا يمكن ابيضاض لون الزنجي، فهذا أمرٌ مستحيلٌ.

جاء في كتاب مثنوى معنوى في عدم تغيير الأصالة لكل شىء: (مولوى، ١٣٦٣ش:

(١٣٢

نقش ماهى را چه دريا و چه خاك رنگ هندورا چه صابون و چه زاك
إنّ الشاعر يستدلّ بعدم تغيير لون السمك في البحر والبرّ على عدم تغيير هذا اللون
السواد.

إن انتساب السرقة، وقطع الطريق، والسلب، والنهب، والغارة الى الهنود السوداء
من المضامين المشهورة في الأدب الفارسيّ. يعتقد ناصر خسرو أنّ الدنيا قاطعة الطريق
وسارقة، وعلى الإنسان أن يحتفظ بنفسه أمام هذا اللصّ: (ناصر خسرو، ١٣٤٩ش:
(١٤٩

جهان هندوست تا رختت نگیرد مگیرش سست تا سختت نگیرد

وقال حافظ: (حافظ، ١٣٨١ش: غزل ٢١٣)

زلف هندوی تو گفتم که دگر ره نزند

سألها رفت و بدان سیرت و سان است که بود

يقول الشاعر إنني ظننت في نفسي أنّ طرّتك السوداء لا تسرق ولا تقطع الطريق،
ولكنني أخطأت في هذا الرأي؛ لأنها تعودت على هذه الشيمة.

ولكن رغم اتصافهم بهذه الخصلة الشنيعة يعتقد النظامي أنّ فيهم المروءة والفتوة
وخصلة العيارة ولا يمكن قطع أيديهم حيث يقول: (نظامي، ١٣٤٣ش: ٤١)

نبرد دزد هندو را کسی دست که با دزدی جوا نمدیش هم هست

وأخيراً نذكر رأي ابن خلدون حيث يناقش سواد لونهم قائلاً: بعض علماء علم
الأنساب يرون أن جماعة السود تكون من أولاد حام بن نوح، دعا عليهم أبوهم فلذلك
أصبحوا سودا، ولهذا اختصّ بهم الله الرقية والعبودية. (مقدمه: ١٥٣)

وأحياناً تبرز ظاهرة الصعلكة من بين الفقراء الذين عجزوا عن مواجهة واقعهم وعدم
تغيير النظام السائد آنذاك. وبهذا اتخذوا من الهرب وكسر طوق الانتماء الذي يحمي

وجودهم مبدأ، فقطعوا كلَّ أوامر القربى بينهم وبين ذويهم واعتقدوا بأنهم قادرون على بناء نظام اجتماعي واقتصادي جديد. وكما يرى الدكتور حنا الفاخوريّ (الفاخوري، ٢٠٠٥م: ١٦٤) راحوا يملأون الفلوات والجبال والأودية رعباً وهولاً ويرفعون علم الصعلكة عالياً لا يُبالون في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة فالحقُّ للقوة والغاية تبرّر الوسيلة وكان صلاح صعلكتهم قوة الجسم وقوة النفس والقوة من أميز ميزات المجتمع الجاهليّ عامة والصعلكيّ خاصة.

وقد عرّفوا بـ"الرجليين" (جواد عليف ٢٠٠١م: ١٧٠) لاستعمالهم أرجلهم في الإقدام والهروب؛ لأنهم فقراء لا يملكون غير أرجلهم تحملهم إلى المواضع التي يريدون سرقتها إذ لا خيل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شرائها فلا يكون أمامهم غير الاعتماد على الرجل.

والمُلفتُ للنظر أنّ بعض المصادر ذكرت أنّ من الصعاليك والعيارين بعضهم طاب لهم أن يظلقوا على أنفسهم "الفتيان" واستساقوا هذا اللفظ؛ لأنّ اتصافهم بالفتوة تدلّ على الشهامة، والمروءة، والفروسية، والشجاعة والنجدة فضلاً عن إغاثة المساكين والفقراء وغيرها من مقومات الفتوة الشعبية. يرى الدكتور محبوب في مقدمته على كتاب "فتوت نامة سلطاني" بعد أن اختلطت العبارة مع التصوف، حصلت على عنوان الفتوة فجعل يتغلغل في عامة الناس بين أصحاب الحرف والمهن. (كاشفي، ١٣٥٠ش: ٧) كما فلا بدّ بأن نذكر أنّ الصعاليك أو العيارين انقسموا حسب دوافعهم النفسية والاجتماعية إلى فريقين: فريق متمرّد حاقّد تنطوى نفسه على نزعة أنانية شريرة. وفريق تنطوى نفسه على نزعة خيرة غايتها حماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية.

ولكن بعد أن أشرقت الجزيرة العربيّة بنور الإسلام تغيّرت أوضاع الحياة العربيّة الاجتماعية والاقتصادية ولم يبق للصعلكة مكانٌ فيها وبخاصة في العهد النبويّ والراشديّ، بسبب ما نشره الإسلام من مبادئ سامية قائمة على العدالة ومبدأ تكافؤ الفرص، ومسؤولية الأمة عن أيّ حيف أو جور اجتماعي يقع على كاهل الفقراء والمُعوزين. فإننا نشهد صورةً أخرى لتلك الحياة التي تغيّرت ظروفها بسبب ما أحاط برقاب الصعاليك من ضوابط الدين الجديد. فلم يعودوا قادرين على المضى في حياتهم

كما كانوا في الجاهليّة؛ لأنّ مقياس الأمور في ظلّ الحياة الإسلاميّة كان يقوم على الحقّ والعدل.

وحتى في العصر الأمويّ والجاهليّة الثانية، أفرط هؤلاء العيارون في أعمالهم حيث أعلن والى العراق خالد بن عبدالله قسرى بإغلاق مجالسهم واجتماعهم. (صديقي و معين، ١٣٤٦ش: ١٣٩)

ويتبيّن أنّ بوادر هذه الظاهرة كانت في مطلع العصر العباسيّ وفي شرق دار الخلافة. وأنّ هذه الظاهرة لم تكن تشكّل خطراً كبيراً يهدّد سلطنة الدولة. وذلك لأنّ الدولة كانت لاتزال قوية متماسكة، وفي ذروة مجدها السياسيّ والحضاريّ، ولاتزال قبضتها قويةً حتى على الأطراف. ولم تكن غاية الصعاليك والعيارين حتى عهد الرشيد سوى أن يتعرضوا لقفلة أو سفينة، فيختلسوا على حين غرّة الشىء الطفيف الذي يسدّ فقرهم. ومن أهمّ العوامل التي أثّرت في إيجاد هذه الظاهرة وتقويتها فهى: إجراء مرسوم غلاء أقوات الفاحش للمعيشة حيث أثّر في تفاقم البؤس، ومن جرّاء ذلك نزوح السكان إلى بلاد أخرى، والجوع، والقحط وموت الكثيرين. فرض ضرائب كثيرة على المنسوجات الحريرية والقطنية وأشياء أخرى بحيث أدّى ذلك إلى اجتماعات للاحتجاج والتمرد العسكريّ و... إلخ (اقتباس من على مقلد، ١٣٦٤ش: ٤٧-٦٧)

وفي الختام نذكر بعض ميزات وخصائص العيارين والفتيان مستعينين ببعض النصوص والأشعار الموجودة في الأدب الفارسيّ. يقول عنصر المعالي كيكاووس: (عنصر المعالي، ١٣٢٩ش: ١٨٣) اعلم أن هناك للفتيان والعيارين عددا من الفنون الخاصة وهى الفتوة والشجاعة، والصبر، وشدة البأس، وصدق الوعد، ليس يرضون بظلم شخص ولا يظلمون من جانب الآخرين، يحترمون الأسراء وينصرون الفقراء ويمحون البؤساء أمام ظلم الحكام، صادقون في القول والعمل. إذا يجلسون على مائدة لا يظلمون على أهلها ولا يفعلون الأعمال الشنيعة، وينظرون إلى البلاء نظرة حسنة و... إلخ. يقول شيخ شهاب الدين سهروردى: (سهروردى، ١٣٧٠ش: ١١٥) الفتوة هى عفة فى الحياة، ومجدّ فى طاعة الحق، كسب المعاش بالمشقة، يعطى شريحة إلى عياله وشريحة إلى البؤساء والمحرومين، يؤثر الآخرين على نفسه.

قال الدكتور برويز خانلري: (خانلري، ١٣٤٨ش: ٦) الفتوة من المنظمات الاجتماعية المهمة في إيران مدى القرون المتمادية وليس عندنا خبرٌ واثقٌ من نشأته، ولكن يمكن انتسابه إلى تأريخ ما قبل الإسلام. تعادل لفظة الفتوة (العياري) في معظم المصادر، المروءة، ولكن عندما نأخذ هذا اللفظ من العربي ليس معناه قريبا بمعنى المروءة. منذ القديم ذُكرت لفظة "عيار" كاسم خاص أو صفة للمحبوبة في الأدب الفارسي يقول رودكي:

داد بيغام به سراندر عيار مرا كه مكن ياد به شعر اندر بسيار مرا
أرسلت الحبيبة إلى رسالة قالت فيها: لاتفضحني ولا تذكرني كثيرا في أشعارك.
كما يعادل السارق، والطارر وقاطع الطريق، مثل هذا البيت من ويس ورامين:
جهان آسوده گشت از دزد و طرار زکرد و لور و از رهگیر و عيار
يرى الشاعر أن العالم قد استراح من السارق، والطارر، وقاطع الطريق والعيار.
وقد ورد المعنى نفسه في كتاب أنيس الطالبين من النسخة الموجودة في مكتبة دهخدا:
«پيش از ما عياران آمدند و آنچه در اين خانه بوده است، برده اند.»
أى قبلنا جاء العيارون وسرقوا ونهبوا كل ما كان موجودا في هذه الدار.
نواجه في الكتب التاريخية والقصص الحماسية والرواية القصصية في الأدب الغربي، لفظة "شوالية" وهذه الكلمة صدى عظيم لخصائص الفتيان والأبطال في الاجتماع الأوروبي في مدى التاريخ. وقد كان التقيد بهذه السلوك واجبا لشوالية في أوروبا الشرقية أو الغربية في ساحة الحرب أو غيرها.

في طريقة الفتوة، لا يُعتبر اللونُ والعصبية والبيئة والعنصرية واللغة أمرا مهما، بل إن الأهداف العالية والأصول الأساسية هي مساعدة الخلق، والعفة، وحفظ الصداقة والمحبة. لهذا السبب نرى العيارين أنهم يحاولون في حياتهم لكسب حسن السمعة بين الناس ويتحملون مشاكل كثيرةً للاحتفاظ بهذه الصفة؛ فمن هؤلاء العيارين أبو مسلم الخراساني، وسنباد، وحمزه بن آذرک سيستاني ويعقوب ليث صفار.

هناك قصةٌ سُميت بسمك عيار وهي روايةٌ عن حياة سمك عيار والسائرين مثل: شغال بيروز، وروزافزون، وهرمزكيل، وشاهك، وسرخرود، وآتشك، وسرخ كافر

ومئات من العيارين الفتيان.

من بعض الخصائص المذكورة للعيار في هذه القصة: (غلام حيدر، ۲۰۰۶م: ۴۳) إنه رجلٌ رشيقٌ، هزيلٌ، ليس بينه والآخرين فرقا ظاهريا ولكن فيه الخصائص الإنسانية مثل الشجاعة، والمروءة، وحسن المعاشرة، وإكرام الضيف، والتواضع بدرجة عالية، بحيث يحاول في رفع مشاكل الناس بقدرته العقل والمنطق.

في رأى سمك عيار: الرجل الفتى ليعلم الفتوة، والمروءة وآداب الغزو، وأن يبدأ في الكلام بالبداهة، ويكون قليل الكلام، وفي ساحة الحرب حاذقا فطنا. وأن تكون أعماله لكسب السمعة العالية ولا الخبز والمال. فإنّ مطالعة هذا الكتاب تساعدنا للحصول على فهم أخلاق العيارين والفتيان وطبقاتهم الاجتماعية وكل شيء يرتبط بهم. بعض خصائص وميزات هؤلاء من خلال النصوص والأشعار الموجودة:
يقول خاقاني:

برفلک شو زيتيغ صبح نترس که نترسد زيتيغ و سر عيار
يعتقد الشاعر أنّ من صفات الفتى العيار أنه لا يبالى المشاكل ولو كان ذلك ينتهي إلى موته.

يذكر عبدالرحمان جامى في ديوانه هفت اورنگ (ص ۵۳۰) صفة الفتيان في ثلاثين بيتا منها: إنه يعتقد بأنّ على الإنسان أن يبتعد عن الدنائة وألا يفكر في نفسه فقط؛ بل عليه أن يكون دينا قويا ويتفكر في البؤساء والفقراء ورفع حاجاتهم في الحياة:

ای که از طبع فرومایه خویش می زنی گام پی وایه خویش
خاطر از وایه خود خالی کن زین هنر پایه خود عالی کن
چند روزی ز قوی دینان باش در پی حاجت مسکینان باش
یرى عطار النيسابورى أن الفتوة، نفس الصبر والحلم والتضرع:

فتوت ای برادر بردبارى است نه گرمى وستيزه بلکه زاريست
ويذكر رودكى السمرقندى في "اندرز نامه" هذه الصفات قائلا:
گر برسر نفس خود اميرى مردى بر کور وکر ار نکته نگيرى مردى
مردى نبود فتاده را پای زدن گر دست فتاده را بگيرى مردى

يرى الشاعر أنّ الإنسان إذا استولى على نفسه وهوها ولا يعيبُ الآخرين ويساعد الإنسانَ البائس، هو الفتى.

النتيجة

وفي الختام كنتيجة للبحث نذكر القواسم المشتركة بين الصلوك الجاهليّ والعيار، فهي فخرهم بسرعة عدوهم وشجاعتهم، وإيثارهم أمام الآخرين، فالسلاح صديقهم الخاص. ويهتمون بالممارسات الرياضية والجسدية والرمائية، ومن خصائصهم الذاتية كتمان السر، والصبرُ والإقدامُ والشجاعة، ومساعدة الفقراء والمساكين، والأمانة وإيفاء العهود والاعتقاد بتقسيم المال بين الفقراء رغم احتياجهم إليها، الإيمان بالعدالة ومكافحة الظلم والاضطهاد، إغارة أموال الأغنياء والمترفين؛ لأنهم يرون أنّ الأغنياء نالوا هذه الثروة بامتصاص دم المظلومين، ففرض عليهم أخذ أموالهم وإيصالهم إلى الفقراء.

ويعود سببُ ظهور هؤلاء في كل مجتمع إلى أنّ الحكام والولاة لم يهتموا بإقامة الأمن والراحة بين الناس بحيث رأى هؤلاء أنّ ينهضوا بإقامة الحقوق المالية أو الاجتماعية الضائعة بوحدهم.

قد بلغ هؤلاء في الشطارة واللصوصية غايةَ المهارة يسرق الوهم من الخاطر والراحة من الطيب العاطر والنوم من أجفان الوسنان واللماطة من أسنان الجيعان ويأتي علي كوامن الغيوب فضلاً عن خزائن الجيوب ويلف الرخيص، والغالي، والوضع والعالى، وقد أعجز المقدم والوالى ففى بعض الأوقات قصد جهة من الجهات بينما هو فى المناهضة والمناهزة غشيه الوالى يطلب المال، ويكتسب المجد. ويتبين من هذا الكلام بأنه لم يتخذ الفقر ضجيعا، ولا الدعة حليفاً، بل رمى بنفسه نحو المرامى الملتقّة والمهالك للمعيشة. وأخيراً:

وسائلةً بالغيّب عني وسائلٍ ومن يسأل الصلوك أين مذهبه
أى يجب ألا يسأل الصعاليك عن مذهبهم وطرقهم، لأنها لا تعلم، إذ لم يكن يستقر
بهم موضعٌ خاص، فإنهم موجودون فى كل مكان وزمان.

المصادر والمراجع

ابن منظور، ابوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم. ١٩٦٨م. لسان العرب. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

إحسان، محمد الحسن. ١٩٩٩م. موسوعة علم الاجتماع. بيروت: الدار العربية للموسوعات.
حافظ شيرازي، شمس الدين محمد. ١٣٨١ش. ديوان. به اهتمام محمد قزويني وقاسم غني. طهران: انتشارات زوار.

خانلري، پرويز. ١٣٤٨ش. «آيين عيارى». مجله سخن. العددان ٥ و ٦.
دهخدا، على اكبر. ١٣٦٠ش. لغت نامه. تحت اشراف محمد معين، سيد جعفر شهيدى. طهران: لانا.
زايد الطيب، مولود. ٢٠٠٧م. علم الاجتماع السياسى. ليبيا: منشورات جامعة السابع من ابريل الزاوية.

زيدان، جرجى. ١٣٨٦ش. تاريخ تمدن اسلام. مترجم على جواهر كلام. طهران: امير كبير.
سعدى شيرازى. ١٣٦٢ش. كليات. به اهتمام محمد على فروغى. طهران: امير كبير.
سهروردى، شهاب الدين. ١٣٧٠ش. فتوت نامه. تصحيح مرتضى صراف. طهران: دنا.
شكى، منصور. ١٣٧٢ش. «درست دينان». مجلة المعارف. دورة العاشرة. العدد ١.
صديقى، غلامحسين، معين محمد. ١٣٤٦ش. جرعه فشاني بر خاک. يادگار. سال ٥٧/٨.
عبدالرحيم، عبدالمجيد. ١٩٦٩م. تطور الفكر الاجتماعى، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
العقيلى، محمد ارشيد. ١٩٩٤م. «العبارون والشطار ودورهم في الحرب بين الأمين والمأمون». مجلة دراسات تاريخية. العددان ٤٩ و ٥٠.

على، جواد. ٢٠٠١م. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. مجلد ١٨ دار الساقى.
عنصر المعالى، كيكائوس بن قابوس بن وشمگير. ١٣٥٢ش. قابوس نامه. به اهتمام وتصحيح غلامحسين يوسفى. طهران: بنگاه ترجمه و نشر كتاب.

الفاخورى، حنا. ٢٠٠٥م. الجامع في تاريخ الأدب العربى، الأدب القديم. بيروت: دار الجليل.
فرشباقيان، احمد. ١٣٨٩ش. «سيمای سياهان در ادب». مجلة ادبستان. العدد ٥٥. (موقع نور.
العدد ٣٨)

كاشفى، حسين واعظ. ١٣٥٠ش. فتوت نامه سلطاني. به كوشش دكتور محمد جعفر محبوب.
لامك: بنياد فرهنگ ايران.

كرين، هانرى. ١٣٨٥ش. آيين جوانمردى. ترجمة احسان نراقى. طهران: نشر سخن.
مقلد، على. ١٣٦٤ش. الفئات الاجتماعية في بغداد أيام الخلافة العباسية. مجلة العرفان. العددان
٧٣١ و ٧٣٢.

مولوى، جلال الدين محمد البلخى. ١٣٦٣ش. مثنوى معنوى. تصحيح رينولد نيكلسون، به اهتمام

دکتر نصر الله پور جوادى. طهران: امير كبير.
هداره، محمد مصطفى. ١٣٨٥ش. اشتراكية الشعراء الصعاليك. السنة الثانية. الجزء ١٤. لامك:
لانا.

نظامى گنجوى. ١٣٤٣هـ. سبعة نظامى (هفت پيكر)، با تصحيح و حواشى وحيد دستگردى. ج ٧.
طهران: علمى.